إهـداء

إلى روح أبي وأمي أسكنهما الله فسيح جناته

وإلى كل طالب علم ضحى بلحظات عمره الغالية

من أجل الارتقاء الإنساني في كافة المجالات

﴿ أهدي ثمرة جهدي المتواضع ﴾

صابر

obeikan.com

الكلمات الدالة

الكلمات الدالة بالعربي	الكلمات الدالة بالإنجليزية
المغرب الأدني	Al-Maghreb Al-Adna
النشاط التجاري البحري	The commercial maritime activity
مراكز التجارة البحرية	The maritime commercial centers
المؤسسات التجارية	The commercial Establishment's
الطرق الملاحية البحرية	The shipping Routes
دور صناعة السفن	Shipbuilding industry
مدينة تونس	Tunis
مدينة المهدية	Al-Mahdia
المدن الإيطالية	Italian cities
البحر المتوسط	The Mediterranean sea
البحر الأحمر	The red sea

obeikan.com

obeikan.com

المقدمة

تتناول هذه الدراسة موضوع النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى في الفترة التي تبدأ مع بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وتنتهي مع نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وهى الفترة التي شهدت ظهور العديد من الكيانات السياسية على ساحة منطقة المغرب الأدنى، كان أبرزها الدولة الزيرية ثم الدولة الموحدية وآخرها الدولة الحفصية.

وترجع بداية دولة بني زيري إلى أن الخلفاء الفاطميين بعد رحيلهم لمصر قاموا بتولية الأمير بلكين بن زيري الصنهاجي على بلاد إفريقية. ثم انقسمت هذه الأسرة الحاكمة إلى فرعين، فرع بني حماد في الجزائر، وفرع المنصور بن زيري في إفريقية. ثم اتجه الفرعان نحو الاستقلال عن حكم الفاطميين، ففي عام٤٤٣هـ/١٠٥١م أُبطلت الخطبة للفاطميين وأقيمت الخطبة لبني العباس. وأمر المعز بن باديس(٤٠٦-٤٥٤هـ/١٠١٦- ١٠٦٢م) بسك عملات جديدة لا تحمل أسماء الفاطميين، ورد الفاطميون على ذلك بإرسال قبائل بني هلال الرعوية إلى بلاد المغرب الأدنى في هجرة جماعية، كان لها أثارها السلبية على الأوضاع السياسية والاقتصادية في بلاد المغرب الأدنى.

وكان نتيجةُ للضعف الذي أصاب دولة بني زيري إثر الهجرة الهلالية، قيامَ عدةِ إمارات صغيرة في أهم المدن، مثل بني خراسان بتونس وابن الرند بقفصة وابن جامع بقابس وبني خزرون في طرابلس، ولم يحتفظ بنو زيري إلا بشريط ساحلي ضيق يمتد من سوسةَ إلى صفاقس.

وفي أواخر العصر الزيري سيطر الموحدون على بلاد المغرب الأدنى، ففي عام٥٤٧هـ /١١٥٢م قام الخليفةُ الموحدي عبد المؤمنِ بن علي(٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٣م) بحملته العسكرية الأولى على تلك المنطقة، والتي

obeikan.com

أفضت إلى إلحاق دولة بني حماد بالدولة الموحدية، وفي عام ٥-٥٥٤هـ /٦٠ – ١١٥٩م تمت الحملةُ الثانية، وآلت إلى امتداد الهيمنة الموحدية على كامل بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة.

وبعد القضاء على نفوذ بني غانية المناهضين لحكم الموحدين في المنطقة، تولى الحفصيون عمالة إفريقية من قبل الموحدين عام٦٠٢هـ/١٢٠٥م، ثم قام الأميرُ أبو زكرياء الحفصي بالإستقلال ببلاد إفريقية عام٦٢٧هـ/١٢٢٩م، فمنذ هذا التاريخ أصبح أبو زكرياء أميراً وبايعه أشياخُ الموحدين الكبراء، وفي عام٦٥٠هـ/١٢٥٣م أعلن أبو عبد الله محمد الحفصي قيام الخلافة الحفصية ولقب نفسه بـ(المستنصر بالله)، وفي عام٦٦٨هـ/١٢٦٩م قدم النصارى لتونس في حملة صليبية، إلا أنها انتهت برحيلهم عام٦٦٩هـ/١٢٧٠م.

– أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

ترجع أهمية موضوع الدراسة إلى عدة أسباب: منها قلة الدراسات العربية التي تتناول التجارة الخارجية لمنطقة المغرب الأدنى في العصر الإسلامي، وتركيز أغلب الأبحاث على بقية بلاد المغرب لاسيما المغرب الأقصى.

كما ترجع أهمية هذا الموضوع لأهمية الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الأدنى في النشاط التجاري البري والبحري معاً في تلك الفترة، فقد كانت بلاد المغرب الأدنى بموقعها هذا تمثل واسطة العقد ورمانة الميزان بالنسبة لتجارة أفريقيا الإسلامية عامة والتجارة البحرية على وجه الخصوص؛ ونقطة التقاء متاجر الشمال الأوربي والجنوب الإفريقي.

كما ترجع أهمية موضوع الدراسة في الكشف عن الدور الكبير للمغاربة كتجار أو بحارة في هذا المجال في تلك الفترة، وهو ما يدحض بعض أراء الباحثين التي ترى أن نشاط المغاربة البحري في تلك الفترة هو مرادف للجهاد البحري فقط.

obeikan.com

وتتميز فترة وجغرافية هذه الدراسة بأنها عرفت لأول مرة في التاريخ الاقتصادي وجود أكثر من وسيلة وشكل للمعاملات التجارية البحرية، خاصة فيما يتعلق ببروز وسيلة العقود والاتفاقيات التجارية القائمة على المصالح التجارية الخالصة في التعامل بين الدول بعضها وبعض آنذاك.

كما أن تلك الفترة تعتبر حجر الأساس في العلاقات التجارية البحرية التي قامت في العصر الحديث بين بلدان البحر المتوسط كافة، لأنها تعتبر ذروة ما وصل إليه المسلمون خاصة المغاربة منهم في سلم التطور الحضاري في المجال التجاري في العصر الإسلامي.

– الصعوبات التي واجهت إعداد الدراسة :

واجهت تلك الدراسة صعوبات عدة منها صعوبة إعادة دراسة وتركيب أنماط التجارة الدولية عامة لاسيما فيما يخص منطقة المغرب الأدنى، وهذا يشبه شخص يحاول جمع خريطة مرسومة على لوح من الزجاج المحطم، حيث فقد كثيراً من القطع، كما أن بعض القطع المتيسرة هي الأخرى مستعارة من أنماط مشابهة على ما يبدو.

ومن الصعوبات التي واجهت إعداد هذه الدراسة أيضاً امتداد الحيز الجغرافي للموضوع، فبالرغم من أن الحيز الجغرافي للبحث ينحصر في بلاد المغرب وبالتحديد في المغرب الأدنى، إلا أن طبيعة موضوع البحث أرغمنا بالابتعاد عن ذلك الحيز لنجد أنفسنا نرحل بعيداً لنلقي الضوء على مناطق أخرى نتيجة طبيعة التجارة البحرية التي لا ترتبط بحيز معين وطبيعة مصالح التجار التي لا تقف عند حدود معينة، كما أن طبيعة معاملات النشاط التجاري البحري وتنوعه وتنوع جنسيات وأوطان العاملون به خاصة التجار، زاد من صعوبة الحصول على معلومة مصدرية عليها شبه اتفاق في تفسير الغامض أو كشف المجهول في هذا المجال،

obeikan.com

لاسيما أن هذا الوضع جعلنا نتعامل مع نوعية من المصادر والمراجع مختلفة في كل شيء سواء من حيث اللغة أم الأسلوب أم حتى في سياق المواضيع المطروحة فيها.

– منهج الدراسة :

طرح الباحث هذه الدراسة من خلال منهج البحث التاريخي، واستخدم أدوات هذا المنهج مثل التحليل والاستنباط والقياس والاجتهاد، عاملاً على مقابلة المصادر والمراجع المختلفة بعضها البعض، للوصول إلى معلومة تاريخية واضحة، اعتماداً على أدلة يمكن الوثوق فيها. وقد تم تقسيم الدراسة إلي خمسة فصول بالإضافة إلى خاتمة:

أما الفصل الأول فقد جاء بعنوان العوامل المؤثرة في النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى: وقد تناولت فيه العوامل الطبيعية مثل الموقع والتضاريس والموارد الطبيعية والعوامل المناخية والكوارث الطبيعية، كما تضمن هذا الفصل العوامل الاقتصادية مثل الرعي والزراعة والصناعة؛ بالإضافة إلى التجارة البرية، كذلك احتوى هذا الفصل على العوامل السياسية والأمنية مثل أوضاع الكيانات السياسية وموقفها من النشاط التجاري والعلاقات الدولية، كما أشرت في هذا الفصل للعوامل الاجتماعية والدينية.

وخُصص الفصل الثاني للرسالة لدراسة مراكز النشاط التجاري البحري: وتضمن الحديث عن المراكز التجارية البحرية التي دخلت في نطاق النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى سواء داخل إقليم المغرب الأدنى نفسه أو خارجه. كما تضمن هذا الفصل مؤسسات التجارة البحرية في المراكز التجارية البحرية، مثل الموانئ والمؤسسات الإدارية والمؤسسات التجارية والمؤسسات الخدمية، كما احتوى هذا الفصل على نظام العمل اليومي والرقابة في المراكز التجارية.

Openkan.com

وتناول الفصل الثالث السفن التجارية وطرق التجارة البحرية: ويضم صناعة السفن التجارية، وذلك من خلال الحديث عن المكونات الأساسية وطريقة صناعة تلك السفن وتجهيزاتها وأدوات الإبحار فيها. وكذلك تناول ذلك الفصل ملكية وأنواع وأسماء السفن التجارية، كذلك أبرز هذا الفصل المسالك البحرية، مثل مسالك البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي. كما تضمن هذا الفصل مواسم الرحلات التجارية وأعرافها.

وجاء الفصل الرابع بعنوان العاملون بالنشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى: ويتضمن العاملون بالمراكز التجارية مثل العاملون بالوظائف السيادية والوظائف الإدارية والوظائف الرقابية؛ كما يتضمن هذا الفصل العاملون على السفن التجارية مثل الربان والبحريون. كما يحتوى هذا الفصل على ذكر فئة التجار وتصنيفاتهم مثل التصنيف الديني العرقي والتصنيف المهني والتصنيف الاجتماعي. ويتناول هذا الفصل أيضاً منازعات التجار خاصة القضايا والمشكلات المتعلقة بالنشاط التجاري البحري التي ظهرت في تلك الفترة، ويتم عرض تلك الفكرة من خلال عرض أهم أنواع تلك المشكلات والقضايا التي ظهرت في تلك الفترة، والمذاهب المستخدمة في حل تلك القضايا ومن تولى حلها.

وعرض الفصل الخامس والأخير نظم النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى: حيث تناول هذا الفصل معاملات النشاط التجاري البحري، وذلك من حيث وسائل ومقاييس وأشكال تلك المعاملات، كما تناول هذا الفصل سلع النشاط التجاري البحري سواء الصادرات أو الواردات من تلك السلع. كما تناول هذا الفصل الحديث عن الأسعار والضرائب التي كانت سارية في النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى.

وفي الخاتمة عرضت لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم ذيل البحث ببعض الملاحق التي تم الاعتماد عليها.

Openkan.com

– دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع الدراسة :

اعتمد الباحث في دراسة هذا الموضوع على كل ما أمكن الحصول عليه من المصادر الأصلية

مخطوطة أو مطبوعة، سواء كانت وثائق بكافة أنواعها، أم مصادر جغرافية ورحلات، أم نوازل ومؤلفات فقهية، أم كتب النظم أو التراجم والطبقات، بالإضافة إلى المصنفات أو المصادر التاريخية المعروفة.

أولاً – الوثائق :

اعتمدت الدراسة على مجموعتين من الوثائق المنشورة، والتي كان لها أهمية كبيرة في تلك الدراسة، وهما وثائق الجنيزة اليهودية، والوثائق الأوربية المسيحية التي ترجع إلى تلك الفترة.

و(الجنيزة) كلمة عبرية تشبه الكلمة العربية جنز بمعنى دفن – قبر – حفظ – خبأ، و(وثائق الجنيزة) عبارة عن خبيئة من الوثائق اليهودية التي عُثر عليها في معبد ابن عذرا بالفسطاط، حيث جرى العرف اليهودي على حفظ أي ورقة مكتوب عليها اسم الله وذلك بتخزينها في حجرة مخصصة لهذا الغرض ملحقة بهذا المعبد. وتُشكّلُ الرسائلُ التجاريةُ أكبر وأهمَّ نسبة من مجموع هذه الوثائق؛ وهى رسائل متبادلة بين التجار اليهود الذين نزحوا عن إفريقية واستقروا في مصر، وبين أقربائهم ووكلائهم الذين بقوا في مدن إفريقية، وفضلاً عن الرسائل التجارية فإنّ وثائق الجنيزةَ تشمل فتاوَى وعقودِ تمُّلك وكشوفِ حسابات. وتُعّدُّ وثائق الجنيزة مصدراً رئيسياً لتاريخ التجارة ونقل البضائع براً وبحراً خاصة في البحر المتوسط، وتُعنّى الرسائلُ بنقل أخبار أسعار السلع المتبادلة وكميتها. وتقارير عن تحركات السفن وحمولاتها وجنوح بعضها، وعن القرصنة في البحر والفدية التي تُدفع للقراصنة؛ وعن أسفار التجار والأسر التجارية وأحوال البلاد المعنية، وموضوعات كثيرة

obeikan.com

أخرى تتصل بالسفر والتجارة في البحر. وقد اعتمدنا على مجموعة منشورة من تلك الوثائق، قام بنشرها عدد من المؤرخين المهتمين بهذا المجال، وكان في مقدمتهم جواتين(Goitiein) الذي استعنتُ بأكثر من مرجع له للحصول على نصوص تلك الوثائق.

أما (الوثائق الأوربية) لاسيما وثائق المدن الإيطالية وصقلية، وتشمل رسائل وعقود ومعاهدات تجارية بين تلك المدن وبين بلاد المغرب الأدنى، وهى وثائق مسيحية نادرة. ذات أهمية خاصة في توضيح دور تجار الدول البحرية الأوربية في التجارة المغربية ومعرفة الضرائب المقررة عليهم والامتيازات التي أعطيت لهم، وطريقة التعامل معهم والسلع التي كانوا يتاجرون فيها. وقد اعتمدت على مجموعة من تلك الوثائق، قام بنشرها مؤرخين أوربيين مثل ماس لاترى(Mas Latrie) وأمارى(Amari) ....وغيرهم.

كذلك اعتمدت في هذا السياق على مجموعة من (الوثائق العربية) خاصة الرسائل المستخرجة من كتب منشورة مثل كتاب " مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية " والذي قام بنشره ليفي بروفنسال، والثاني كتاب "رسائل موحدية (مجموعة جديدة)" تحقيق أحمد عزاوي؛ والثالث كتاب "رسائل ديوانية موحدية" تحقيق أحمد عزاوي أيضاً وهو كتاب حديث النشر. ولتلك المجموعات من الرسائل قيمة كبيرة من الناحية التأريخية، حيث أنها تعرض لنا إشارات مهمة عن النشاط التجاري البحري خاصة فيما يتعلق بالإجراءات التي تتخذها الكيانات السياسية التي قامت في تلك المنطقة بالمراكز التجارية بها، كما أشارت تلك المؤلفات والرسائل لبعض العلاقات الدولية بين تلك الكيانات وبين البلاد الأجنبية، والتي أثرت بشكل مباشر على النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى.

ومن أهم المؤلفات التي اهتمت بصيغ العقود لاسيما عقود المعاملات المالية كتاب "وثائق المرابطين والموحدين" والذي ينسب لعبد الواحد المراكشي، ويرجع

أهمية هذا الكتاب إلى أنه أشار إلى بعض أشكال المعاملات التجارية البحرية في تلك الفترة، كما وضح أسلوب كتابة العقود والوثائق الخاصة باستئجار السفن والمنشآت التجارية البحرية، لأنه يحتوى على جلها تقريباً. كما أن الكتاب يحتوى على شرح وتوضيح لبعض السلع الداخلة في النشاط التجاري البحري، إلا أن هذا الشرح هو من إعداد المحقق وليس المؤلف.

ثانياً– مصادر الجغرافيا والرحلات :

تعد تلك المجموعة من أهم المجموعات المصدرية التي استعنتُ بها في إعداد تلك الرسالة؛ فقد قدم جغرافيو المسلمون ورحالاتهم أوصافاً دقيقة لمدن المغرب الأدنى ومناطق أخرى من العالم دخلت في نطاق بحثنا وصادراتها، بما في ذلك تقارير تصف طرق التجارة ومناطق الإنتاج. وقد أثبتت كتبهم أهمية هذه الدراسة وقيمتها، رغم تنوعها دقةً وأصالةً. وكان بعض الكتاب بما فيهم ابن حوقل وابن جبير وبنيامين التودلى قد عاشوا في الواقع في الأماكن التي وصفوها في أعمالهم.

بالمقابل بقي كثير من المؤلفين خلف مكاتبهم يقتبسون من الكتب العتيقة أو يسجلون ذكريات الرحالة المعاصرين. إلا أن هؤلاء الجغرافيين ليسوا بالضرورة أقل دقة من نظرائهم الأكثر حيوية. ورغم دمج أحد هؤلاء الجغرافيين المعلومات المستقاة من عهود مختلفة – كما هو حال الإدريسي الذي كتب في وسط القرن الحادي عشر الميلادي – إذ أدخل المواد الأقدم في عمله، إلا أن العديد من هذه المعلومات تؤرخ في زمن الكتابة.

ويأتي في مقدمة تلك المجموعة من الكتب كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل، فرغم أن الكتاب يعاصر فترة تسبق فترة بحثنا بقليل جداً، إلا أنه وطبقاً للنظرية التي ينادي أصحابها أن التطور التاريخي والحضاري لأية تجمع إنساني يأخذ مئات السنين، فإن ما ذكره صاحب هذا الكتاب بالضرورة ينطبق على فترة بحثنا

obeikan.com

خاصة وأن فترة تأليف هذا الكتاب تسبق فترة بحثنا مباشراً وليس بعيدة عنها من الناحية الزمنية، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه أعطانا صورة كاملة عن الأوضاع الطبيعية والاقتصادية لبلاد المغرب الأدنى والمناطق المحيطة بها، خاصة فيما يتعلق بتأثير تلك الأوضاع على النشاط التجاري البحري، كذلك أعطانا معلومات مهمة عن بعض السلع التي تدخل في نطاق النشاط التجاري البحري، بالإضافة إلى توضيح للمسالك البحرية التجارية التي تربط بين بلاد المغرب الأدنى والعالم الخارجي. وكان كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المأخوذ من كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م، هو الشبيه بل المتمم لكل المعلومات المهمة التي وردت في كتاب ابن حوقل سابق الذكر، إلا أنه يتفوق عليه من حيث الأهمية بسبب أنه يعاصر فترة بحثنا.

وُيعد كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) لأبى عبد الله محمد بن محمد الإدريسي (ت٥٦٠هـ/١١٥٤م) من الكتب المهمة للدراسة، فمؤلفه كان معاصراً لفترة تأسيس البحث. وترجع أهميته أيضاً إلى أنه أشار في أكثر من موضع للسلع الداخلة في حركة التصدير والاستيراد التي تدخل في سياق موضوع بحثنا، كما ترجع أهميته بالإشارة لبعض المسالك البحرية وطرق صناعة السفن، كذلك الإشارة لأهم المراكز البحرية التي تتدخل في نطاق موضوع بحثنا.

ويأتي كتاب (رحلة بن جبير) للرحالة أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤ هـ/١٢١٧م) من أهم مصادر الدراسة لقيام مؤلفه بعرض صورة توضيحية كاملة لإحدى الرحلات البحرية في فترة البحث، كما أشار مؤلف هذا الكتاب في أكثر من موضع إلى طرق صناعة السفن ومكوناتها وأجزائها، كذلك أشار إلى الحياة على ظهر سفينة في تلك الفترة، والظروف الطبيعية والسياسية التي قد تواجه هؤلاء المسافرين على ظهر السفن في تلك الفترة، كذلك أشار إلى بعض الضرائب والمكوس التي قد تُفرض على التجار والمسافرين في بعض الموانئ.

وبالإضافة لما سبق عرضه من كتب الجغرافية والرحلات فهناك مجموعة من تلك المصادر والموسوعات الجغرافية المتممة لها، والتي أعطتنا معلومات تهم بحثنا خاصة فيما يتعلق بسلع ومنتجات وثروات وصناعات منطقة المغرب الأدنى وباقي المناطق التي تدخل في سياق موضوع بحثنا وتأثير تلك المنتجات على النشاط التجاري البحري، بالإضافة إلى إشارات لمكونات وطرق صناعة السفن وكذلك الإشارة للمنتجات التي قد تتدخل في سياق موضوعنا كسلع قابلة للاستيراد والتصدير بالإضافة للإشارة لمسالك الرحلات التجارية وطبيعة البحور التي تمر بها. ومن تلك المؤلفات، كتاب (الاستبصار في عجائب الأمصار) لمؤلف مراكشي مجهول، فهو يُعد أيضاً مصدراً لمعلومات جغرافية وتاريخية وأثرية هامة، وقد أختص مؤلف هذا الكتاب مدن المغرب بتوضيح أحوالها الاقتصادية، حيث بّين الكتاب الثروة الزراعية والمعدنية لكل مدينة مغربية. وكتاب (الجغرافيا) لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزهري(ت أواسط القرن٦هـ/١٢م)، وكتاب رحلة بنيامين التطيلي للرحالة الرابى بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي(٥٦١– ٥٦٩هـ/١١٦٥– ١١٧٣م)، وكتاب (رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي وكتاب "الجغرافيا" لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وكتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) لزكرياء بن محمد بن محمود القزوينى (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)، وكتاب (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) لابن عبد الحق البغدادي(ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، وكتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) للعمري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، وأخيراً كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) لمحمد بن عبد المنعم الحميري(ت في أواخر القرن ٩ هـ/١٥م).

ولا يسعنا أن نغادر شرح وتحليل تلك المجموعة من المصادر إلا بعد ذكر نوعية مهمة منها، وهي كتب الربان البحرية التي كانت نتيجة خبرة أصاحبها في مجال قيادة

السفن والإبحار، ومن تلك المصادر المهمة استعنا بمؤلفات مثل كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والأراجيز والقصائد" لمؤلفه الرحالة البحري المعروف ابن ماجد، وكذلك كتاب (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) للكاتب الرحالة المعروف أيضا سليمان المهري، وترجع أهمية هذه النوعية من المؤلفات في إعطائنا خلاصة خبرة هؤلاء الرحالة في قيادة السفن والرحلات التجارية والإشارة لطرقهم في الإبحار والأدوات والأساليب التي استخدموها في هذا المجال .

ثالثاً- كتب النوازل والحسبة :

تحتوي مؤلفات النوازل على القضايا التي رفعت إلى المفتين للنظر فيها، وعادة ما تذكر القضية وأشخاصها ووقائعها مع ذكر من رفعت إليه وتاريخ وقوع النازلة، وكثير من هذه النوازل كانت تتعلق بقضايا اقتصادية لاسيما تجارية منها ترجع إلى فترة بحثنا. وقد استفدت من تلك النوعية من الكتب في أكثر من موضع من الرسالة، خاصة فيما يتعلق بالعملات وأنواعها، وأشكال التعامل الذي كان قائما في تلك الفترة، بالإضافة إلى أهمية تلك المصادر في الإشارة للمنازعات التي قد تنشأ داخل سياق النشاط التجاري البحري. ومن المؤلفات التي تتبع ذلك النوع من التصنيف كتاب (فتاوى المازري) للمازري، وكتاب فتاوى البرزلي (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام) لأبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي(ت٨٤١هـ/١٤٣٨م)، وكتاب (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب) لأبى العباس احمد بن يحي الونشريسى(ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م).

ويتبع تلك المجموعة من المصنفات كتب الحسبة، لاسيما كتاب (آداب الحسبة) للسقطى؛ و(رسائل ابن عبدون وابن عبد الرءوف والجرسيفى) (من أهل القرن السادس الهجري) والتي نشرها ليفي بروفنسال ضمن كتاب " ثلاث رسائل

أندلسية في الحسبة والمحتسب" ، والتي ألقت الضوء على كثير من المعاملات التجارية والموازين والمكاييل.

رابعاً- كتب العملة والمكاييل والموازين :

هي مجموعة من المصادر اهتمت في المقام الأول بالموازيين والمكاييل والأطوال والعملات؛ وقامت بوصفها وصفاً محكماً وتقدير مقاديرها طبقاً للفترة التي عاصروها مؤلفي تلك المصادر؛ ويأتي في مقدمة تلك النوعية من المؤلفات التي استعنت بها كتاب (تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية، وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك) لمؤلف مجهول عاش في القرن السابع الهجري. كما كان أبرز المؤلفات التي استعنت بها والذي لا يقل أهمية عن كتاب " تلخيص القول" السابق الذكر، كتاب (إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقية الدينار والدرهم والصاع والمد) لأبى العباس أحمد العزفي السبتي (٥٥٧-٦٣٣هـ/١١٦٢- ١٢٣٦م)، الذي يتحدث عن قضية المكاييل والأوزان الشرعية ومحاولة تأصيلها تأصيلاً تاريخياً يرجع لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك النقود الإسلامية حيث يذكر تاريخها ويقف عند أوزانها وما ورد فيها من أقوال العلماء، ويرجع أهمية هذا الكتاب بالإضافة إلى ما سبق إلى أن مؤلفه مغربي عاصر فترة البحث؛ مما يعطى الكتاب مصداقية وأهمية في ذكر أرقام وتفاصيل خاصة بالموازين والمكاييل التي عرفها المغاربة في تلك الفترة. كذلك استعنت بمجموعة من المخطوطات التي تدخل في هذا السياق ومنها؛ مخطوطة (كتاب في الأوزان والمكاييل)، مخطوطة بدير الاسكوريال لمؤلف مجهول؛ ومخطوطة (الإيضاح والتبيان في معرفه المكيال والميزان)، مخطوطة بدار الكتب المصرية لمؤلفها ابن رفعه، ومخطوطة (مقالة ايليا المطران في المكاييل والأوزان) الموجودة بدار الكتب المصرية.

كما استفدت بكتاب (الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة) لأبى الحسن علي بن يوسف الحكيم (عاش خلال النصف الثاني من القرن٨هـ/١٤م)، ويبدو من

obeikan.com

استعراض فصول الكتاب ودراسة محتواه أن مؤلفه أراد أن يؤلف كتاباً كاملاً عن موضوع الذهب والفضة وما يتخذ منها من نقود وقد وفق في ذلك، فاستوفى الموضوع من كل جوانبه التي كان يتطلبها عصره فهو يتحدث عن الذهب والفضة من جميع النواحي : اللغوية والجغرافية والطبيعية والكيميائية، كما أشار أبو الحسن في كتابه هذا أكثر من مرة إلى بعض أوزان العملات الموحدية، بالإضافة إلى بعض الأوزان والمكاييل المستعملة في تلك الفترة.

ومن المؤلفات التي عنيت بالعملات أيضا كتاب (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية) لابن بعرة (ت أواخر القرن٧هـ/١٣م)، فرغم أنه كتاب لمؤلف ليس بمغربي إلا أنه ذكر أنواع العملات التي كانت ترد إلى دار الضرب المصرية، خاصة المغربية منها.

خامساً – كتب التراجم والطبقات :

لقد اتبعت كتب التراجم العامة منهجاً واحداً، فهي تذكر اسم المترجم له كاملاً وكنيته وبلده الذي ولد فيه والذي منه أصله والبلد الذي نزله إن رحل إلى بلد آخر، ثم تبين شيوخه وعلومه ومن عنه أخذ وتختتم الترجمة بتاريخ الوفاة والمولد والمكان. وترجع أهمية تلك النوعية من المصادر أنها تذكرُ العلماءَ الذين كانوا تجاراً، وربما لم يكن هؤلاء العلماء التجار ممثلين للتجار المسلمين، ولكنهم كانوا في الواقع التجار المسلمين الوحيدين الذين نملك عنهم معلومات شخصية.

ويدخل في هذا السياق كتابا (تاريخ الإسلام) و(سير أعلام النبلاء) للإمام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي(ت ٧٤٨هـ –١٣٧٤م). كذلك كتاب (الحُلة السيراء) لمحمد بن عبد الله بن أبى بكر(ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) المعروف بابن الآبار.

كذلك كتاب (المُغرب في حُلى المغرب) لابن سعيد (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، ويعتبر كتاب (عنوان الدراية فيمن عُرف من علماء المائة السابعة ببجاية) لأبى العباس الغبرينى (ت٧١٤هـ/١٣١٥م) مصدراً مهماً لتراجم علماء وفقهاء جاءت من أماكن وجهات متفرقة من العالم الإسلامي إلى بجاية، حيث كانت بجاية في تلك الفترة مركزاً تجارياً مهماً جداً في بلاد المغرب عامة، كان يستقطب الكثير من المسافرين والتجار، وكتاب (التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبى العباس السبتى) لابن الزيات التادلي (كان حياً في الربع الأول من القرن ٧هـ/١٣م).

سادساً- المصادر التاريخية:

يمكن تقسيم مصادر تلك المجموعة لقسمين رئيسيين مغربية ومشرقية، وقد احتوت على معلومات اقتصادية متناثرة صبت في مصلحة البحث، بالإضافة إلى معلومات عن أحوال الكيانات السياسية والتجمعات الحضارية التي عاصرت البحث، مع إشارات ضئيلة للعلاقة بين تلك العناصر والنشاط التجاري البحري. ويأتي في هذا السياق كتاب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لأبي عبد الله محمد بن عذارى المراكشي المتوفى في أوآخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وأرخ ابن عذاري تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى عام ٦٦٧ هـ/١٢٦٩م. وقد اعتمد ابن عذارى كثيراً على الروايات المعاصرة للأحداث، وأكثر من النقل عن ابن صاحب الصلاة ويوسف بن عمر، وأورد عدداً من الرسائل الرسمية التي احتوت على مجموعة من الأوامر والنصائح لعمال الحكام المغاربة في الولايات. كما ترجع أهمية هذا المصدر لذكره العديد من العوامل الطبيعية التي أثرت في النشاط التجاري البحري.

وينسب لهذه المجموعة أيضاً كتاب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) لأبى محمد عبد الواحد بن على المراكشي (ألفه عام٦٢١هـ/١٢٢٤م). وقد صنف كتابه بالمشرق مما يسر له قدراً كبير من الحياد في رواياته ونقدها.

obeikan.com

ويدخل تحت هذا الصنف أيضاً من المصادر كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) لأبى زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨ هـ /١٤٠٦م) وهو يتألف من سبعة أجزاء وجزء ثامن للفهارس؛ الجزء الأول منه هو المقدمة المشهورة والتي حصلت عليها من طبعة مستقلة بذاتها عن الكتاب الأصلي، وبقيت الأجزاء الأخرى يتناول فيها المؤلف تاريخ العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول منذ بدء الخليقة إلى عصره، كذلك أخبار البربر ببلاد المغرب وأجيالهم ودولهم، وقد اعتمدت على المقدمة والجزء السادس من الكتاب فقط، حيث يقدم ابن خلدون الكثير من المعلومات التجارية المتفرقة عن تلك الفترة مثل ذكر بعض العملات المغربية. بالإضافة لذكر الكيانات السياسية وأثرها على الحياة الاقتصادية لاسيما التجارية منها.

كذلك كتاب (الكامل في التاريخ) لأبى الحسن على بن محمد بن الأثير الشيبانى (ت٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م) والذي سرد أخباراً مهمةً عن منطقة المغرب الأدنى، والأنشطة الحضارية بها في تلك الفترة.

كذلك استعنت بموسوعتين من الموسوعات التاريخية الأولى (نهاية الأرب في فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٢٣هـ/١٣٣٧م)، واستفدت بها في السياق التاريخي لمنطقة البحث لاسيما في ترتيب الأحداث، ويبدو أن ما جاء فيه عن موضوع بحثنا ما هو إلا اقتباس عن ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي وابن خلكان. أما الموسوعة الثانية فهي(صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) لأبى العباس أحمد القلقشندى (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، حيث استفدت منها بمعرفة بعض المعلومات الاقتصادية الخاصة بمنطقة المغرب الأدنى خاصة فيما يتعلق بإمكانيات تلك المنطقة الاقتصادية وبعض العملات المتداولة بها، بالإضافة إلى الإشارة للكيانات السياسية التي قامت في تلك المنطقة ودورها في المجال الاقتصادي.

Obeikan.com

وفي نهاية هذا العرض لأهم المصادر التاريخية، لا يمكننا إنكار ما أسهمت به دراسات المحدثين من المستشرقين والعرب.

سابعاً- المراجع العربية والمعربة:

لم نغفل الاطلاع على كل ما أمكن الوصول إليه من كتابات المستشرقين مثل كتاب (دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية) لجواتين(Goitein)، و(تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م) لروبار برنشفيك(Robert Brunschvig)، وكتاب (بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى) لجورج مارسيه(George Marcais)، وكتاب(التجارة والتجار في الأندلس) للمؤلفة أوليفيا ريمي كونستبل(Olivia Remie Constable) وكتاب (تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى) لهايد(Heyd)، وكتاب (الدولة الصنهاجية) لهادي روجى إدريس(Hady Roger Idris)، وكتاب (ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م) لاتوري روسي(Ettore Rossi). وكتاب (التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية) لأمبرسيو هويثي ميراندا(Ambrosio Huici Miranda)، وتلك المجموعة من المراجع ركزت بشكل أساسي في شرح التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة البحث، بالإضافة إلى احتوائها على مراجع متخصصة في تاريخ النشاط التجاري لاسيما البحري منه.

كما أطلعت على كتب من أرخ للمغرب والأندلس من المؤرخين المصريين والمغاربة، والتي ضمت مجموعة من أحدث المؤلفات والإصدارات في هذا المجال، ومنها كتاب (الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس) للدكتور حسن علي حسن، وبعض مؤلفات الدكتور عز الدين عمر موسى مثل (النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري)، و(دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي)، و(الموحدون في الغرب الإسلامي)، وكذلك كتاب (التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم) للدكتور عبد الهادي التازى خاصة

obeikan.com

الجزء السادس منه. وكتاب (السلطنة الحفصية) لمحمد العروسي المطوي، وقد كانت تلك المؤلفات ذات أهمية خاصة في هذه الدراسة، بسبب أنها من المراجع التي تخصصت في تاريخ المنطقة ونظمها الحضارية، لاسيما فيما يختص بالنظم الاقتصادية وخاصة النظام التجاري منها.

وكذلك أطلعت على مجموعة من المراجع العربية الأخرى التي ذكرت بعض المعلومات المتفرقة عن النشاط التجاري البحري لمنطقة المغرب الأدنى، ومن تلك المراجع كتاب (تاريخ دهلك وحضارتها في القرون الستة الأولى من الهجرة من خلال شواهد القبور) لأستاذنا الدكتور حسين مراد، والذي عرض به معلومات مهمة عن جزر دهلك وأهميتها التجارية كمحطه للتجار العاملين في مجال النشاط التجاري البحري، كما يرجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه أشار إلى أن جزر دهلك عرفت قدوم التجار المغاربة إليها مما يؤكد أنها كانت ذات صلة اقتصادية مع بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة. كذلك كتاب (تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي) لمحمد عبد الغني الأشقر، وكتاب (الموحدون وأزمات المجتمع) لمحمد المغراوي، وكتاب (في تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور أحمد مختار العبادى، وكتاب (المغرب في العصر الوسيط) للدكتور محمد زنيبر، و(العلاقات بين الشرق والغرب) لعزيز سوريال عطية، وكتاب (التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك) لشوقي عبد القوى عثمان حبيب و(دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور أمين توفيق الطيبي.... وغيرهم الكثير.

كما استعنت بمجموعة من المراجع الأجنبية التي اختصت بمجال التجارة الدولية لاسيما البحرية منها مثل كتاب " ADiplomi Arabi Del Archivio Fiorntino" للمؤلف"Michel A mari "، وكتاب " Jews in the Economic and Political Life Of Medieval Islam" للمؤلف"fishel"، وكتاب" Traite de Paix et de Commerce et Documents Divers Concernant Les Relations des Chrétiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age"

للمؤلف "Mas Latrie". وكتاب "AMediterranean Society " للمؤلف المعروف (Goitein)....إلخ.

ولم نغفل الإطلاع على الدوريات العلمية والأبحاث العربية والأجنبية التي أفادتنا في البحث؛ والتي في معظمها أبحاث أجنبية جديدة ركزت بشكل أساسي على شرح بعض أوجه النشاط التجاري البحري، مثل طرق الصرف وتغيير النقود بين الأقطار المختلفة وبعض السلع المتداولة، وذكر لأشكال المعاملات التجارية القائمة، ومن تلك الأبحاث أبحاث عربية أو معربة مثل (حول رأى ابن ماجد في أسلوب الملاحة عند البحارة العرب في البحر الأبيض المتوسط) لحسن صالح شهاب، وكذلك (البريد التجاري في الدولة العربية الإسلامية من خلال المصادر التاريخية وسجلات الجنيزة) لخوله عيسى صالح الفاضلي، كذلك بحث (هل هناك أصل عربي أسباني لفن الخرائط البحرية) لخوان برنيط، كذلك أبحاث أجنبيه مثل " Credit as a Means of Investment in Medieval Islamic Trade " للمؤلف " Abraham L. Udovitch" كذلك " From the Mediterranean to the Indian Ocean " للمؤلف "André Wink "، كذلك بحث " Reputation and Coalitions in Medieval Trade " للمؤلف "Avner Greif "، كذلك بحث " The Jewish Merchants in the Light of Eleventh-Century Geniza Documents" للمؤلف "Moshe Gil"، كذلك مجموعة من الأبحاث للباحث المعروف جواتين(Goitein) مثل"Portrait of a Medieval India Trader " و" Commercial and Family Partnerships in the Countries of Medieval Islam"...الخ. كذلك استعنت بمجموعة من الرسائل العلمية العربية والأجنبية لباحثين مصريين ومغاربة وأجانب.

وختاماً أتقدم بخالص الشكر وعظيمِ الإمتنان وأرفعِ آيات الثناء لأستاذي الدكتور حسين مراد، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية ووكيل معهد البحوث

والدراسات الأفريقية، الذي أشرف على هذا العمل وتعهده بإرشاداته المنهجية القويمة وتوجيهاته العلمية الدقيقة التي أنارت الكثير من جوانب الدراسة. وكان له دور كبير في إخراج تلك الدراسة بهذه الصورة. ولم يقتصر فيضُ عطاءِ أستاذي الدكتور حسين على مرحلة الدكتوراه فقط، بل تشرفت بالنهل من علمه الغزير ومنهجه القويم منذ بداياتي في الدراسات العليا، كما كان لي خير مشرف ومرشد ومعلم وموجه في مرحلة الماجستير، كما اعتدت منه على كرمهِ العلمي الذي بلغ حد المبادرة منه بتقديم كل ما لديه من جديد المصادر والمراجع الخاصة بموضوع الدراسة دون سؤال مني، سواء في مرحلة الماجستير أو الدكتوراه، الكلمات تعجز عن وصف فيض عطائه الذي لا ينقطع، حتى أصبح لي القدوةُ والمثل الأعلى على المستوى العلمي والإنساني.

كما أتقدم بوافر الشكر وعظيمِ الامتنان لأستاذتي الدكتورة سوزي أباظة أستاذة التاريخ والحضارة الإسلامية وأميرة البحث العلمي، التي قدمت من وقتها وجهدها الغالي والنفيس في إرشادي وتوجيهي في كافة مراحل إعداد الدراسة منذ اختيار الموضوع وحتى اكتمال الدراسة. ومنذ مرحلة التمهيدي وحتى الآن تشرفت بالنهل من علمها وتأثرت كثيراً بدقتها العلمية المميزة، بالإضافة لما يعرفه الجميع عنها من التفاني في أداء عملها وتميزها في أسلوب الشرح والإلقاء.

والله أسأل أن يوفقنا إلى وجه الحق والصواب، وأن يغفر لنا أخطاءنا في اجتهادنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

obeikan.com